وبئر السبع عبر استعمال صواريخ غراد روسية الصنع ذات مدى (20- 40 كلم).

حرب «عمود السماء»

في حرب الأيام الثمانية (عمود السحاب) التي كانت الأقصر بين حربين، فاستطاعت المقاومة أن تفاجئ العدو، وساعدها على الحل السياسي وجود الجماعة الأم لـ«حماس» (الإخوان المسلمون) في حكم مصر. وأيضاً كانت الإمدادات العسكرية من تحت الأرض تعمل بأعلى طاقتها.
هكذا كانت مسافة أربع سنوات كافية لتقوي المقاومة ذراعها وتطور مداها الصاروخي حتى مدى 80-75 كلم، كذلك حدّثت بنك أهداف مقابل، وإن لم يكن مدى الخطأ للصواريخ جيداً، لكنها استهدفت معنوياً مدناً مهمة في فلسطين المحتلة كالقدس وتل أبيب.
كل ذلك أسهم في إضعاف طاقة تحمّل الشارع الإسرائيلي الذي وجد نفسه في مرمى نيران المقاومة دون فعالية من القبة الحديدية كما في الحرب الأخيرة، وأيضاً برعت المقاومة في العمل على إطلاق الصواريخ عبر الأنفاق، وهو ما جعل جهاز الجو الإسرائيلي معطلاً إلا من قصف البيوت المدنية.
فضلاً عن ذلك، بنت فصائل المقاومة شبكة اتصالات خاصة على شاكلة شبكة اتصالات حزب الله، ما جعلها تدير المعركة بأمان، خلافاً لحرب «الرصاص المصبوب» . وما ساعد المقاومة على إحجام الإسرائيليين عن الدخول البري، هو كشفها وصول صواريخ مضادة للدروع والسفن الصغيرة (كورنيت) الروسية الصنع، إضافةً إلى منصات الإطلاق الثابتة والمتحرّكة للصواريخ بأنواعها. لكن من المهم الإشارة إلى أن الحرب بدأت باغتيال نائب قائد كتائب القسام، ما أعطى الإسرائيلي ورقة رابحة منذ بداية الحرب، الأمر الذي جعله يرفع عينيه عن إكمال العملية.

حرب «الجرف الصامد» (2014)

بعد سنتين، عملت المقاومة يوماً بيوم لتحييد تأثير سلاح الطيران الإسرائيلي، فمهدت لجعل الأنفاق الأرضية تهديداً حقيقياً للعقيدة القتالية لجيش العدو، كذلك صارت المدرعات هدفاً سهلاً للصواريخ الموجهة، وكذلك حال المشاة.
تقدمت المقاومة منذ اليوم الأول وقبل الدخول البري من أجل اختراق الروح المعنوية، وذلك بعدة عمليات خلف الحدود، وهو نتاج جهد كبير بدأ من رصد مواقع العدوّ وتقسيم أفراد وحدة النخبة القتالية في المهمة الواحدة إلى أكثر من مجموعة ثم الاشتباك من على مسافة صفر مع جنود الاحتلال، ما يوحي بتلقي أفراد هذه الوحدة تدريبات مكثّفة.
فضلاً عن ترافق ذلك بتوثيق الحدث إعلامياً وإخضاع بعض لقطاته لتمويه بصري في عملية «المونتاج»، مثلما حدث في عملية الإنزال شرق الشجاعية عند موقع «ناحل عوز».
في النتيجة، صار سلاح المقاومة الإعلامي أشبه بمرجعية مصدقة عند الشارع الإسرائيلي تماماً كما كان مع حزب الله، وصار سلاح الجو مشكلة تكتيكية يمكن التغلب عليها عبر توظيف عنصري المبادرة والمناورة. حتى في التصدي البري وتفجير المدرعات وقنص الأفراد، لم يؤثر القصف الجوي العنيف في الأداء القتالي، وإن كان قد أحدث دماراً هائلاً في العمق المدني الفلسطيني ومنشآته التحتية. ما ميّز هذه الحرب منع المقاومة الاحتلال من الاختراق في العمق، حتى وإن أعلن قادته أن عمليتهم محدودة، ما جعل التواصل بين مناطق القطاع ممكنة، وشمل التصدي البري تصدياً آخر موازياً على الشاطئ، وسجلت المقاومة للمرة الأولى رباطاً ورصداً موسعاً على خاصرة البحر.
إضافة إلى ما سبق، نجحت فصائل المقاومة في تحويل جنود الاحتلال من صيادين إلى طرائد حينما أعلنت أن هدفها أسر أكبر عدد منهم. وحتى اللحظة صرحت «القسام» بأنها أسرت الجندي شاؤول آرون قبل مجزرة الشجاعية.
أمام هذا السرد للانتفاضة الحجارة وانتفاضة العمليات الاستشهادية وثلاث حروب متوالية، تبقى الفصائل كلها أمام مفترق طرق، فإما أن تعمل على إكمال الإعداد وتطوير قدراتها لتكشف مفاجآت جديدة في أي مواجهة مقبلة، وإما أن يحدّ الملعب السياسي مشوار ميدانها الناجح.

وتعقّب مطلقيها واغتيالهم، وأيضاً تقليل نسبتها. أيضاً لم تكن الجبهة الداخلية الفلسطينية على قدر عالٍ من التماسك، إذ عمد الاحتلال إلى اختراق صفوف المقاومين وإحباط خططهم، وخصوصاً على صعيد المعركة البرية، فتوغلت قواته في غرب بيت لاهيا وشرق جباليا (شمال)، وحي تل الهوا جنوب غزّة، من دون رد مُحكم من المقاومة، وأيضاً عمل الإسرائيلي على تقطيع القطاع إلى 3 أجزاء وفصل الإمداد الطبي بين المدن.
رغم ذلك، كشفت المقاومة ورقة جديدة في المجال الصاروخي، فقد تطوّر مدى الصواريخ، ووصل إلى أسدود وعسقلان

البداية من النهاية

في الحرب الأخيرة بدأت المقاومة قصفها من حيث انتهت قبل عامين، إذ كان الاستهداف الأول الذي نفذته سرايا القدس لمدينة تل أبيب المحتلة. وفي وضع مشابه، بينما بدأت الحرب بقصف هذه المدينة، انتهت في آخر خمس دقائق باستهدافها مجدداً. وكشفت المقاومة، خاصة كتائب القسام تطوير مداها الصاروخي، وصولاً إلى ما هو أكثر من 100 كلم، وأعلنت أنها قصفت مدينة حيفا المحتلة بإطلاق صواريخ «R160»، وقدر الاحتلال الإسرائيلي أنها نسخة عن صواريخ M302 السورية الصنع التي تمكّنت «حماس» من حيازتها قبل استيلاء العدو على سفينة «كلوز سي» قبالة البحر الأحمر، وفق الرواية العبرية، وكانت تلك السفينة تحمل أربعين صاروخاً من ذاك النوع.
في المقابل، اضطر الاحتلال إلى نشر منظومة التصدي للصواريخ (بطاريات القبة الحديدية) على أكبر مساحة من فلسطين المحتلة (ثماني بطاريات) خاصة عند المدن الرئيسية، على خلاف وضعها إياها سابقاً في غلاف غزة. وإن ظهر أن قدرات القبة تحسنت بتغلبها على «صواريخ الطعم» التي كانت تطلق لإفراغها، فإنها لم تصل فعالية كبيرة مقارنة بعدد الصواريخ التي أطلقت، خاصة عجزها عن التصدي لقذائف الهاون من نوع 120 ملم التي يصل مداها إلى 12 كلم.

إسماعيل هنية. يقول يوسف لـ«الأخبار» إن الحركة صارت تتمتع بواقعية، «وأدركت حجم الضغوط التي تواجهها، وخاصة في ظل قدرة إسرائيل على إدارة المجتمع الدولي وتحريكه مع الأنظمة العربية ضدها، وهذا أمر نجحت وتنجح فيه غالباً». «لا يعني تخلي حماس عن الحكم أنها ستختفي عن الساحة السياسية بقدر ما أنها تعتبر أن تجربة حزب الله مدرسة كاملة لحركات التحرر، فمثلاً في لبنان ليس بإمكان أحد أن ينتخب رئيساً للبنان دون قبول الحزب بسبب تأثيره السياسي وتركيبة البلد»، يضيف يوسف.
رغم ذلك، ليس من السهل في بيئة واقعة تحت الاحتلال المباشر وغير المباشر، تطبيق هذا النموذج، وخاصة مع انجذاب «حماس» إلى مجموعة متباينة من التأثيرات الخارجية. ويبدو أنه بعد الحرب تعززت مخاوف من إمكانية عودة «حماس» إلى محور سوريا وإيران وحزب الله بقدر موازٍ لما ظهر عليه التفاؤل في بداية المعركة، لذلك يرى الباحث في شؤون الإسلام السياسي، محمد حجازي، أن الأمور لن تعود إلى سابق عهدها مع الحلفاء الذين تخلت عنهم الحركة، «فهناك خشية من التجربة معها من جديد، والأمور بحاجة إلى سنوات عديدة».
وبينما حمل اتفاق المصالحة ضمناً أن سلاح المقاومة لن يمس في غزة، أعيد الحديث عنه إسرائيلياً في مفاوضات إيقاف الحرب، لكن السلطة الفلسطينية التي كانت مشاركة في الوفد المفاوض أعلنت أنها ترفض الحديث عنه، مع أن ممارستها العملية في الضفة المحتلة تظهر عكس ذلك.
بناءً على ذلك، يرى حجازي أن أي عودة

> **ليس من السهل في بيئة واقعة تحت الاحتلال تطبيق هذا النموذج**

للسلطة إلى غزة ستقابل بإصرار كتائب القسام وباقي الفصائل على أن تظل منظومة المقاومة كما هي، لكن مقابل ألا تطلق الصواريخ على إسرائيل بصورة متقطعة أو عشوائية «تماماً مثل حالة حزب الله». وإذا تحقق ذلك، فإن النجاح سيكون حليف المقاومة، لكن لا يعرف بعد هل سيكون هناك توافق مع السلطة حتى تغض الأخيرة الطرف عن تسلح الأولى وامتلاك أكبر عدد من الصواريخ وتصنيعها، أم سيكون اعتبار أي مواجهة بين فصائل المقاومة والجيش الإسرائيلي مخالفة للتنسيق الأمني، ما يمكن أن يشعل المواجهة مجدداً.
هذا السيناريو ممكن من وجهة نظر الكاتب حسام الدجني، وخاصة إذا «وافقت المقاومة على إكمال رئيس السلطة محمود عباس المفاوضات مع الاحتلال، ورضي الأخير ببقاء قوة المقاومة». لكنه يرى أن تراجع التأييد الشعبي لطرف ما ووجود خطين متوازيين سياسياً قد لا ينجحان هذه الفكرة، «لذلك أمام الجميع تحدّ كبير ستظهر نتائجه قريباً».
ومنذ اليوم الأول لوقف الحرب، أعلنت فصائل المقاومة أنها استكملت تدريبها لعناصرها وإعادة التصنيع لتعويض المخزون الصاروخي، فضلاً عن العمل للاستفادة من الأخطاء التي حدثت، كما أشارت إلى أن عدد المنضوين تحت أجنحتها من المقاومين زاد عما قبل.

المقاومة والسياسة

عامر محسن

كان من الطبيعي أن يستغلّ محمود عبّاس مفارقة ادّعاء النّصر، مع القبول بشروط تشبه المبادرة المصريّة، كركيزة في هجومه الأخير على حركة حماس. المشكلة في كلام عبّاس هي انّه ليس بريء المقصد، ولا هو يهدف الى حوار وطني (أو حتى محاسبة)، بل إنّه جزءٌ من حرب سياسيّة أُعلنت على «حماس» بالتزامن مع انتهاء العدوان، تشبه الحرب الداخلية التي استهدفت «حزب الله» ما إن وضعت حرب تمّوز أوزارها _ والهدف هنا هو ليس «حماس» بذاتها، بل المقاومة.
اختبرنا، في العديد من المناسبات، مقدار حرص رئيس السلطة على المصلحة الوطنيّة الفلسطينية، وليس من صالحه فتح باب المحاسبة؛ إن كان يتّهم «حماس» بارتكاب أخطاء سياسية أدّت الى إطالة أمد الحرب وتحمّل المزيد من الخسائر والتضحيات، فإنّ سلطة أوسلو قد أشرفت على إهدار حقوق تاريخيّة وإلحاق ضرر بالقضيّة الفلسطينية قد يستلزم إصلاحه عقوداً. أساساً، وفي المبدأ، لا يحقّ لمن شارك في الوساطات المشبوهة أن يشتكي من نتيجتها؛ وإن كانت قيادة «حماس» قد ارتكبت أخطاء، فإنّ خطأها الأوّل _ والأكبر _ كان في القبول بمن شارك في الحرب عليها وسطاء ومفاوضين.
الحملة السياسية على «حماس» ليست جديدة، ولا هي مرتبطة بالعدوان ونتائجه؛ حملة العزل هذه ابتدأت منذ سنوات، واشتدّت وازدادت فعاليّتها مع صعود النّظام الجديد في مصر، وهي ما أوصل «حماس» الى القبول _ قبل العدوان _ بتنازلات كانت إسرائيل لتعجز عن انتزاعها منها بعشر حروب، وأوّلها الدخول في حكومة تحت شروط «الرباعيّة» (الاعتراف بإسرائيل ونبذ العنف). اليوم يلوح خطر صدام داخلي فلسطيني يُضاف الى الحصار الخارجي، ومن هنا فإنّ واجب «حماس»، تجاه القضيّة أوّلاً، هو أن تحسن إدارة موقفها السياسي وألّا تدخل المقاومة في نفق العزل الكامل والتنازلات.
هناك اليوم من لا ينظر الى «حماس» إلّا من زاوية النكاية السياسية، أو انزعاجه من خطاب خالد مشعل وباقي طقوس التدمير الذاتي الذي تمارسه الحركة على نفسها في بعض الأحيان. لم يعد شيء من هذا مفاجئاً، ومن حق البعض أن يمتعض ويُسائل وينتقد، إلّا أنّ جوهر الموضوع يظلّ في أنّنا، كعرب، لا يحقّ لنا أن نفرض على الفلسطينيين قادتهم، ولا خياراتهم السّياسية. واجبنا يقتصر على دعم مقاومتهم وحمايتها أو، أقلّه، أن لا نكون شركاء في الحرب عليها.